

الباب السابع

ديكنز وعيد الميلاد

أخذ تشارلس ديكنز على عاتقه أن يدافع عن قضية عيد الميلاد ، ذلك العيد الذى كانت تحتفل به أوروبا فى القرون الغابرة ، ولا يزال يعتبره أفرادها فرصة نادرة للتمتع بالمأكل والمشرب . كما كانوا يقيمون عند حلوله الصلوات ، ولكن مثل هذا الاحتفال اليوم يظهر لنا وكأن القداسة تنقصه ! عيد الميلاد هو أحد الأعياد الأوربية القديمة التى كانت تجمع بين مظاهر البهجة بحلول يومه وبين مظاهر الدين والورع التى يتجمل بها الناس . . . ولكنه كان فى انجلترا شيئاً آخر . إذ أصبح لدى الأنجليز ذا طابع خاص من وجهة قداسة الديانة ؟ وكذلك فى طريقة الإحتفال به . وديكنز فى تصويره لعيد الميلاد يعطينا صورة يتجلى فيها الاختلاف وأصحابنا فنرى الناس فى بيوتهم يحتفلون بالعيد حول المدفأة ، يرتلون ترانيم العيد ويمرحون ، فى حين أن الجو الخارجى شديد البرودة والأمطار والثلوج تكاد تحطم الأرض .

« النشودة عيد الميلاد »

كان ديكنز أثناء إقامته فى إيطاليا يكتب قصص عيد الميلاد ويحلم وسط مدينة تسكانيا البيضاء بعد ميلاد تسقط فيه أمطار الرحمة على الناس كما أنه فى أول كتاب له تحت عنوان « النشودة العيد » اختار موضوعاً تجرى

سجوداته وسط ضباب لندن الكثيف . إذ كان من خصائص ديكنز أن يهتم بالجو الذي تجرى فيه حوادث قصته . إن الروح الذي يسود قصته عيد الميلاد يبدو أهم من شخصيات القصة أى أهم من سكروج ذاته أو من الأشباح التي تلعب دوراً له أهميته والتي تخيف بطل القصة . ويضفي ديكنز على هذا النوع من الكتابة قبضا من روحه الشفافة ويملاها باساليب البهجة وفي ذلك يختلف ديكنز عن باقي كتاباته التي أحيانا ما يملؤها الحزن أو الغموض إن قصته هذه تشبه الحلم في الطريقة التي تقع بها الحوادث فيترامى للقارىء أن سكروج يحلم فيرى الحوادث التي يسردها لنا المؤلف في قصته ، فأحيانا يبدأ الحلم بنهاية العالم وينتهي بحفلة شاي

تتغير الحوادث في هذه القصة بدرجة كبيرة واسكن القصة نفسها لا تتبدل . هذا الكتاب عبارة عن حلم أو بعبارة أخرى دعوة للشعب أن يتהלل بالعيد وأن يرحب بقدومه ، وأن يشفق الإنسان على أخيه المحتاج والفقير ، وأن يتساوى الجميع في المحبة والأخوة . كانت نظرية ديكنز العامة في الحياة أن الإصلاح هو نتيجة المحبة البشرية وروح المساعدة . كان المؤلف يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه لو أحب الإنسان أخاه لما وجد الفقر والجهل طريقاً إلى المجتمع ، ولذلك بدلا من أن ينادى بإصلاح العوامل الخارجية فانه نادى بإصلاح القلوب والعواطف . وكانت الفرصة سانحة في أيام الأعياد أن يكون الإنسان مرحا يحب عمل الخير . ففي ذلك الحلم الذي يحدثنا عنه في « انشودة عيد الميلاد » يدعو الناس لفعل الخير ومع أن الحلم نفسه قد يكون مزعجا إلا أنه يدخل علينا المرح أحيانا ويثير اهتمامنا كما أن الحوادث تتغير بطريقة تدعو للحيرة وتعددتها فيه يعمبه كتابا به صور عديدة يرى الإنسان واحدة بعد الأخرى ، ولكن برغم تعدد المناظر فان روح القصة لا يتبدل .

إن العيد ورسالته هما أهم شيء في الكتاب .

تبدأ القصة في يوم من أيام الشتاء فنرى رجلاً بخيلاً وقد تبدو بداية كهذه مزعجة أو مقبضة، ولكنه يتدارك ذلك فيملاً الجو حولنا بشراً وفرحاً . فلا تلبث الأبواب أن تنفتح وتنطلق منها الأصوات مرنة مسبحة . ويشبهه ديكنز الثلوج التي كانت تتساقط بسخاء الناس الكرماء . كما أن الأمطار كانت تذكره بالجمعة التي لا تغيض . إن سكروج بالرغم من بخله كان ذا عواطف بشرية سامية . كما أن بخله كان مدعاة لفرحه وسروره . فهو رجل أعزب عجوز ، ولكن بالطريقة التي يظهره لنا فيها المؤلف ، يبدو كأنه ابن عشرين ربيعاً . عجوز يتصانق ! .. إن جمال القصة لبس في موضوعها آلاى أو فى البخيل سواء أكان ذلك محتملاً أو مستحيلاً بل فى الفرح الذى يشع من وجهه سكروج نفسه ومن كل شيء حوله حتى إن المدفأة لتمثل قلب ديكنز المتأجج العاطفة

سواء أثرت رؤيا عيد الميلاد فينا أو لم تؤثر ، وسواء هذه الرؤيا قد اشتركت فيها أشباح الماضى والحاضر والمستقبل ، فإنها الرؤيا التى قام بها ملائكة السماء

إن القصة ترسم من البداية للنهاية فهى تشبه الرجل الذى يغنى فى الطريق إلى المنزل وحتى إذا لم يعرف الغناء فإنه يصرخ من شدة الفرح . !

يدور موضوع القصة حول سكروج الرجل الشحيح الذى يرى فى ليلة العيد شبح « مارلى » زميله فى العمل . كما أنه يرى شبح « العيد الماضى » « والعيد الحاضر » « والعيد المستقبل » فيقوم شبح « عيد المستقبل » بأن يظهر له الطريقة التى يموت بها وتأثيرها على معارفه وأن هذه الميتة وطريقتهما لا تتبدل إلا إذا غيّر من مناجح حياته فتؤثر فيه هذه الرؤيا ويصبح رجلاً

آخر يشعر بخطأه فيحاول أن يكفر عن أخطائه الماضي .

حينما كان ديكنز منهمكا في كتابة أعداد « مارتن شزلويت » رأى أن يكتب أيضا في نفس الوقت قصة عيد الميلاد التي جعلته يسكب دموع الفرح والحزن وذلك لأنه كان ينظر لتسلك الشخصيات التي كان يخلقها وكأنها شخصيات حقيقة ، فكان يشاركهم عواطفهم في الحوادث التي تقع في مجرى القصة وكان لكثرة تفكيره في موضوع قصته يسير في طرقات وشوارع لندن ليلا في الظلام الحالك لمسافات تتراوح بين خمسة عشر وعشرين ميلا في حين أن جميع الأفراد العقلاء كانوا نياما في بيوتهم . وفي مدة شهر من صدورها كانت تصل ديكنز رسائل الإعجاب من جميع جهات إنجلترا يخبره فيها راسلوها عن نوع بيوتهم وكيف أنهم كانوا يقرأون قصته بفرح وسيحتفظون بها على رف خاص ويقرأونها كل عام في عيد الميلاد .

كان ذلك في عام ١٨٤٤ . وإلى الآن تقرأ هذه القصة كل عام في ليلة العيد في جميع أنحاء إنجلترا بل وفي كثير من البلدان الأوربية الأخرى . ولكن تكاليف النشر لم تترك له كسبا يذكر . لذلك فضل السفر إلى إيطاليا لكي يقلل من كثرة النفقات . . .

بعد صدور « النشودة العيد » كتب لورد جفرى إلى تشارلس ديكنز يقول . « عليك أن تبتهج لأنه يجب أن تتأكد بأنك فعلت خيرا عظيما إذ أخرجت هذه القصة الصغيرة . إنك خلقت شعورا طيبا وشجعت أعمالا خيرية كثيرة وكانت النتيجة أعظم من أى عظة منذ عيد « ميلاد عام ١٨٤٣ » كما أن « تاكرى » أحد الكتاب المعاصرين ومؤلف كتاب « قصص عيد الميلاد » امتدح الكتاب قائلا إنه يعتبره « عملا قويا ذا قيمة عظيمة » لم يعيش في ذلك الوقت إنسان لم يهتم بهذا الكتاب الذي كان يؤدي رسالة

العيد . إن رسالة هذه القصة كانت تعظ الرجل المحب لذاته وتدعوه للتخلص من هذه الرذيلة وكانت تقول لرجل الحق بأن يكون كريما وللرجل الطيب القلب بأن يكثر من عمل الخير ويوسع من نطاق أعماله الصالحة . إن صوت هذا الكتاب كان داويا وكان يحمل في طياته الثقة والأمل .. يدوى صوته من طرف الجزيرة إلى الطرف الآخر حاملا لواء النذير للجميع قائلا لهم « إن كان هذا الاحتفال بالعيد مقصرا في الواجبات الأساسية فإنه لا فائدة من الاحتفال به كظهور من مظاهر القومية ! يجب على مباهج العيد أن تشرق على المنازل التي لا توجد فيها مدفأة والتي يرفرف عليها ملائكة الحزن .. كما يجب أن يكون العيد رمزا للطيبة وعمل الخير والاحسان والرأفة والتسامح » لم يعيش إنسان غير ديكنز استطاع أن يرمز للناس بالطريقة الفريدة التي استخدمها في كتابته . لقد علم الناس ضرورة إدخال السرور على قلوب الآخرين في الوقت الذي يسود فيه المرح جميع البشر ...

« الإمبراسي »

حين فكر ديكنز في كتابة قصة العيد الثانية قرر أن يكون هذا الكتاب دفاعا عن حقوق الفقراء . فلم يشأ أن يجعله مشابها لأشردة العيد ولما كان نفس نوع العظة التي وجدت في قصته الأولى كانت تدور في فكره . فقد حاول إصلاح المجتمع كما نجح في إصلاح سكروج بأن أثبت لجمهور القراء أن السعادة للمجتمع تتمتع على نفس العوامل التي تجلب سعادة الفرد وتلك العوامل هي الرحمة والاحسان والحق . لم يبذل ديكنز أى اهتمام في دراسة السياسة الدولية لأنها كانت لديه سسيلة الفهم بالبديهة إذ كان فهمه للمجتمع صحيحاً . وأعتقد بأنه من الخطأ أن يثير طبقة ضد طبقة أخرى ولكنه في

الوقت نفسه كان إعتقاده السائد هو أن يساعد الطبقات على فهم بعضها البعض ولذلك كان وهو في « جنوة » يتخذ « حامل التذاكر » في لندن بطلا لقصته وكان على هذا البطل ألا يفقد الثقة في الاثرياء أو يكون قاسسيا في تفكيره نحوهم رغم أن قد أنقلب فهمه إلى تفكير متطرف بأن فقد ثقته في الفقراء أمثاله.

ذهب ديكنز الى إيطاليا وروح عيد الميلاد تملأ قلبه وهناك في عام ١٨٤٤ بين أشجار الزيتون والبرتقال كتب ثاني قصص عيد الميلاد وأطلق عليها عنوان « الأجراس » وهي تختلف عن سابقتها اختلافا بينا، ففيها تسكثرا لمطار وان كانت تنزع كقصته الأولى إلى دعوة الناس إلى الاحسان والمرح، وامسكتها دعوة شديدة محاربة فاذا اعتبرنا انشودة عيد الميلاد مناسبة للوسم فإن الثانية تعتبر عيد الميلاد الحربية. فيها يظهر ديكنز سرورا فوق العادة في حربه ضد موقف رجال السياسة بطريقة لا يستطيع الفقير أن يتحداها إذ أنهم كانوا قد وهبوا المرح على حساب الغير فوصف ديكنز ذلك المرح بطريقة وحشية تتجسم في شخصية « كيوت » هاجم المواقف كل آرائهم التي نادوا بها وهي أنه على الفقير أن يعيش عيشة رخيصة وحقيرة . ولم يكن لديهم شيء آخر غير نصيح الفقراء بهذه النصائح العرجاء . وكان القرن التاسع عشر يعج بمئات من هؤلاء الأذعياء الذين دأبوا على نصيح النقيير تحت ستار المحبة والرغبة وعمل الخير . وقد نادى البعض منهم بضرورة تحديد الفقراء لنسلهم لما ينتج عن كثرة النسل من جرائم وعدم استطاعتهم تربية أولادهم تربية حسنة .

كل هذه المساوىء قام ديكنز بمحاربتها في هذه القصة كما أنه يروى محادثة بين تروتى فيك والأجراس وفيها تقوم الأجراس بنهر تروتى لاعتقاده بانها كانت تمير عن أسفها بانقضاء العصور الوسطى .

كانت فلسفة القصة فلسفة مؤلمة غامضة تملأ الجو سموما وتكدر صفو

الافراد لانها كانت من إنتاج القرن التاسع عشر .

نحارب ديكنز في هذه القصة صنوف الفقر . فهو يتألم لآلام الفقراء لذا أخذ على عاتقه أن يخفف من تلك الآلام وأن يصلح تلك الأحوال الاجتماعية التي كانت السبب في تعاستهم . لم يشفق المؤلف على الشعب أو دافع عنه أو حارب من أجله لأنه كان من غير طينتهم بل لأنه كان من الشعب ! كان يعبر عن الغضب المستتر الذي كان يسود النفوس ، نفوس الفقراء في ذلك الوقت . فيعبر عما كان يخالجهم ويشعر به الجهلاء نحو المتعلمين . كان القرن التاسع عشر محافظا لا يحب التجديد ، ضد الاطباء والمصلحين والذين يبشرون بالمحبة . ولم يكن أفرادهم ليرفضوا مساعدة أديرة الرهبان القديسة فحسب بل كانوا يفضلون أن يموتوا بدلا من الذهاب للاصلاحية . في قصة انشودة العيد حين يقوم سكروج بالاشارة الى الافراد الزائدين من السكان فان الشبح يقول له « لا تتحدث عن هذه الزيادة مادمت لا تعلم ما هي الزيادة وأين تكون » كان هذا الحديث الذي تحدث به المؤلف عن طريق شخصياته حديثا معقولا وحين كان يقوم بعض رجال الاقتصاد الذين يزعمون بحب الخير بالبحث عن الزيادة في السكان فانهم لا يلبثوا أن يجيبوا « إذا وجدت زيادة في السكان فمعنى هذا أن السكان الزائدين زائدون عن الحاجة ! ! » .

حينما كان تشارلس ديكنز في جنوة « بلد الأجراس » كان يعمل في مكتبه فوق الجبل . وكان يصل اليه رنين الأجراس فيتخيلها وكأنها تقرع في وقت واحد إلى أن جاء منتصف ليلة من ليالى الخريف دقت فيه الأجراس بشدة وهو في غرفته يحاول النوم ، وكان رنينها يحاء له بفكرة جديدة هبطت عليه فجأة . كان موضوعها الدفاع عن الفقراء فكتب إلى فورستر يقول « لقد سمعنا الأجراس في منتصف الليل ياسيد شالوا » وقبل أن تصل هذه الرسالة

إلى مكتب البريد كان ديكنز يكتب بجد واهتمام مستخدماً الفكرة التي أوحى له بها الأجراس . دق هذه الأجراس تفرع ليلاً أو نهاراً إنها بدلاً من كونها أجراساً إيطالية أصبحت أجراساً انجليزية كالتى كان يشاهدها ديكنز فى كنيسة سانت دنستان فى شارع فليت .

كان المؤلف يجلس إلى مكتبه كل صباح بعد أن يأخذ حماماً بارداً فيعمل إلى وقت الغروب . وقد كان لا يستطيع أحد التحدث إليه لأنه كان كالجنون لا يستقر على حال ، ولكنه كتب فى اليوم الثالث من نوفمبر عام ١٨٤٤ حوالى الساعة الثانية مساءً يقول : « الحمد لله لقد أتممت كتابة قصة الأجراس » . وبعد ذلك أحضر الخرائط على عجل وأخذ يستطلع المسافة بين إيطاليا ولندن . وكان الاتفاق أن يقيم فورستر حفلة فى غرفة « لنكولن إن فيلدز » وكان المدعوون ممن إختارهم تشارلس وعلى رأسهم كارليل أحد الكتّاب والمؤرخين المعاصرين ...

وفى الساعة التى حددها المؤلف إجتمع عدد من المستمعين وكان كارليل من بينهم وحينئذ بدأ تشارلس فى قراءة القصة . وكانت قراءته لا تشبه أى قراءة أخرى له . فقد انتهى ناحية جديدة فجعل اشخاص القصة حقيقيين . واستطاع المستمعون حينذاك أن يتخيلوا معه أبطال القصة ويبدأوا وكانهم ينصتون إلى أجراس جنوة الضخمة وهى تفرع بشدة ... وقد كان « ماكينز » صديقاً لديكنز يحمل ورقه بيضاء معه فأخذ يرسم فيها منظر القارىء والمستمعين من حوله من غير أن يعرف ديكنز ورسم حول وجهه خطوطاً ضئيلة كأنها شعاع مصباح يفج منه النور . إن وجه ديكنز كان ثابتاً فى اضاءته . شخصية « تروتي فيك » أى حامل التذاكر شخصية غريبة : نراه فى القصة يأخذ خطاباً ليسلمه إلى رجل الأعمال . ذلك الرجل الذى يحب النظام

ويقوم بمراجعة الحسابات ويتأكد من تسديد كل الديون الفردية وبدم
العام الجديد معناه فتح حساب جديده . . كل ذلك يجعل « تروتي » يفقد
شجاعته لأنه لا يستطيع أن يعمل بهذه التضحية التي يسدى بها له رجل
الأعمال وينتهي به التفكير بأن طبقته لا علاقة لها بالعام الجديد وأن هذه
الطبقة تعتبر دخيالة بالنسبة للطبقات الأخرى . ومع أن تروتي يستعيد
شجاعته لمدة ساعتين حين يذهب لحضور حفلة عشاء طفل أحد الجيران إلا
أنه عند رجوعه إلى المنزل يجد أن فكرة المستر « فايلر » قد غالت بذهنه
ويقول لنفسه « إن لدينا عدداً من الأطفال أكثر من متوسط العدد اللازم
وأن الأطفال لا حق لهم أن يولدوا » . وحين يجلس في منزله يقرأ الجريدة
وحوادث الاجرام التي يتركها الفقراء فان ذلك يؤكد له فكرة أن الفقراء
اشرار وأنه لا يوجد أى أمل في انقاذهم وفي هذه الحالة يخيل اليه أن
الأجراس تناديه فيقول لنفسه « فليكن الله بعونى ! دعنى أذهب للأجراس .
لأننى أشعر بالموت يمدنو منى وقد تحطم قلبى وأصبح كسيراً ، دعنى أقضى
نحى بين الأجراس التي كانت دائماً عزائى الوحيد » فيذهب تروتي إلى الأجراس
آخر الأمر وهى فى أعلى البرج وهناك يذهب فى شبه عيبوبة ...

يبدأ الجزء الثانى برنين الأجراس وتظهر الأشباح العديدة فى حركة
مستمرة ، بعضها يحمل رسائل والبعض الآخر يحمل زهوراً وطيوراً . ويظهر
الآخرون والبشاشه على وجوههم ، وآخرون يظهر من وجوه قبيحة أمام
تروتي وكانت الأجراس تدق فى الليل وكأنها تعبر عما يختلج فى نفوس
الشر فتمول :- « من هو ذلك الانسان الذى يشك فى حالة الفقير ! ويبحث
بصرخة لا معنى لها ضد اخوانه !! » فيجيب عليها تروتي قائلاً انه هو ذلك
المذنب فتحمله الأشباح فى الهواء فترىه مشاظر عديدة تبرهن له أن الخير لا

يزال عالقا بالفقراء والبؤساء حتى في أسوأ أحوالهم، وفي ارتكاب جرائمهم وأن الجميع يملكون نصيبهم من الخير على السواء . ثم تراه الأشباح بعد ذلك تاريخ حياة ابنته « ميج » التي تفشل في زواجها . ويموت اصدقائها، وتترك بطفل صغير في حالة فقر وبؤس، وينتهي حالها بالطواف في شوارع المدينة ليلا، ويراهها أبوها وهي تفكر في اغراق نفسها وطفلها، ولكن قبل أن تلقى بنفسها في الماء ويرى « توبي » كيف تغطي طفلها بجزء من ثيابها البالية بطريقة تظهر جمال الطفل في مرقده الأخير وكيف أنها تحنو عليه وتلك له قدميه، وتهبه أعز حب وهبه الله للبشر. وحين تجرى الى الماء يصرخ توبي قائلا انقذها أيتها الأجراس وأرجعها الى ! دعها تكف عن عملها هذا ولكن الأجراس تجيبه على طريقته فتقول : ولماذا ننقذها ؟ انها شريرة الفعال . دع الأشرار يموتون ولكن توبي يخر على قدميه ويطلب الرحمة من الأجراس التي تنقذها في النهاية ! . يعطى توبي الفرصة لأن يرى كيف أن المستر فايلز الرجل المحب للنظام يترك حساباته غير مسددة ومرتبكة مع أنه كان يدعى حسب النظام . ويحدث كل ذلك في نهاية العام ومن هذا يصل تروتي الى النتيجة أن نصيبه من السنة الجديدة لا يقل عن نصيب غيره وأن الفقراء بالرغم من الشر الذي يرتكبونه فان قلوبهم عامرة بالخير الذي ينتصر على كل شيء وأنه يجب على الانسان أن يحتفظ بالثقة في غيره . ولكن عندهما بحر الزمن يحرف في مده أمثال المستر فايلز والمستر كيوت . . . يسمع توبي الأجراس يدوي رنينها فوق المياه وحين يستمع اليها وينظر حوله يطلب يد المساعدة إذ به يستيقظ، فيجد الجريدة التي كان يطالعها ساقطة عند قدميه و « ميج » ابنته جالسة أمامه تحيك شرائط رداء العرس . كل ذلك يحدث في العام الجديد وحينئذ يسمع من نافذته المفتوحة الأجراس تعلن إنتهاء العام وحلول

العام الجديد وبانتهاء صوت الاجراس يقبلون بتشارد بحج خطيبته ويأتون الجيران لكي يعبروا لمج عن تحياتهم الطيبة وحينئذ وسط تلك الأفراح يقوم توبي برقصة ذات إيقاع غريب وهي مشيته التي إعتاد عليها .

« عصفور البيت »

كان ديكنز أثناء كتابة أعداد « دومي وابنه » يمر بفترة من الزمن تتخللها المأسى والنكبات ولكنه مع ذلك كتب فيها قصة مرحية هي « عصفور البيت » وهي كتاب العيد الثالث لعام ١٨٤٥ وموضوع هذه القصة عبارة عن حلم فيه ينسى العالم الحقيقي في حين أنه في القصتين السابقتين يستيقظ الانسان منها لكي يواجه عالم النشاط والعمل حين تظهر تلك الأشباح التي نراها في الفصل الأول من قصة « انشودة العيد » ويحاول الوصول الى الأشخاص الذين يريدون مساعدتهم، ولكنه يقف عند حدها بسبب الاغلال التي صنعتها لنفسها أثناء وجودها بين الأحياء . فان أصعب شيء يواجهه القارئ هو عدم وضعه الكتاب جانباً وذهابه لعمل شيء آخر قبل أن تتعلق السلاسل به. وأما القصة الثانية أي الأجراس فهي تختلف عن القصة الأولى بأنها تجعل القارئ يشعر بالبورس إلى أن ينجح في عمل شيء يحدث لشخص آخر في حاجة المساعدة وأما في قصة العيد لعام ١٨٥٤ أي « عصفور البيت » فان كل شيء يحدث حول المدفأة ، وما على القارئ إلا الاستمرار في القراءة حتى لا ينسى العالم الخارجي ويشارك شخصيات الكتاب أفراسهم . وقد مثلت هذه القصة في يوم ١١ يناير من عامها الأول على مسرح في لندن وهي لا تزال تقرأ في لغات عديدة في أعياد الميلاد . . .

هذه القصة تمثل كل صفات الكاتب الممتازة أو بالحرى الصفات التي

امتازت بها قصص العيد . فيها يشفق ديكنز على الطبقات الفقيرة كما أنها تتغنى بروح المنزل وجمال الحياة العائلية وإجتماع أفراد المنزل حول المدفأة التي يشع من حولها الضوء الذي يدعو الجمع الى الالتفاف حوله وعنوان القصة يعبر عن الموضوع بنفس القدر الذي تعبر به الحوادث نفسها . يهتم ديكنز باظهار حالة شخصيات القصة المرحية ولكنه لا يهتم بالقصة ذاتها إن قصة هذا الجمال وإمراته لا نستطيع فيها تركيز أفكارنا ولو أننا نشعر بشيء من الحرارة تسرى في أبداننا حين نقرأها فليفسر وتنشرح صدورنا كما أننا نشعر أن كل شيء سيتم بالنحو الذي نريده، فلا يساورنا نفس الشك الذي يساور الزوج « تاكتون » مثلا وفي النهاية فان أصوات الفرح تصل إلى الآذان أضعف مما نسمع عائلة « كراتشت » أو أجراس « تروتي فيك » .

« معركة الحياة »

في عام ١٨٤٦ كتب ديكنز إلى فورستر يقول له « أرسل لك في إثنتي عشرة رسالة الجزئين الأولين من كتاب العيد . . وأود معرفة رأيك فيها هل أعطى القصة عنوان معركة الحياة أو قصة حب ؟ . » لقد وجد المؤلف في كتابتها صعوبة في التعبير عن الموضوع في نطاق محدود، وقد كتب لورد جفرى حين نشرها يقول : اعجب بالمعركة إعجابا شديدا إنها أحسن من أى كتابة أخرى لأى مؤلف على قيد الحياة وبها بعض أجزاء تضاهي في تفوقها كتابات المؤلف نفسه ؟ ! ! ! .

في هذه القصة كما في قصة « الأجراس » نجد أن الأجزاء المهمة كانت محكمة النسيج لدرجة تجعل الفكرة غير مناسبة لموضوع العيد . يدور الموضوع حول اختين تقوم الصغرى بالتضحية بعواطفها حتى تجلب السعادة لاختها

الكبرى « جريس » ولكن جريس كانت قد أدت نفس التضحية نحو اختها الصغرى . إن معركة الحياة الأولى والأصعب كانت قد كسبت قبل بداية الحوادث الأولية في القصة . وحين نراها لأول مرة نجد أنها منشغلة في محاولتها لتزويج اختها من « الفريد هينتفيلد » الرجل الذى أحبه والذى كانت تخفى عنه هذا الحب مراعاة لشعور اختها . إن « ماريون » نفسها كانت قد أحبت الفريد وخطبت له ونرى أن الأختين في بداية القصة تخفیان حبهما وتحاول كل أن تضحي بحبها من أجل الأخرى وفى الوقت نفسه تخلص كل واحدة منهما في حبها له . . .

في الجزء الثانى نرى أن ماريون تهرب من منزل والديها وهى لا تزال تخلص في حبها لألفريد ولكنها تقابل رجلاً آخر اسمه « ميشيل واردن » فيتقدم لطلب يدها فتقبله زوجاً لها . فى ذلك الوقت تظن جريس أن ماريون قد هربت مع ميشيل لكي يتزوج الاثنان فتزوج جريس من الفريد وبعد مرور سبعة أعوام يلتقى الجميع وينجلى الحق . إن محاولات الجميع يتخللها أحياناً الحزن ولكنها فى النهاية تكلل بأكاييل الفرح والسرور . إن قلوبهم لم يقوضها الحزن الذى فرضته عليهم واجباتهم نحو الآخرين كما أنهم لا يفقدون مقدراتهم على مجابهة أعباء الحياة . من مزايا ديكنز فى هذه القصة أنه يكسب الأشياء الحقيرة رونقاً وجمالاً كما يخلع عليها ثوباً قشيباً من الروعة والمهاء . ونحن فى هذه القصة نستطيع أن ننقل بفكرنا من حقائق الحياة العادية إلى مناطق الفكر الخيالى وفى هذه القصة تقوم كليمنس بدور ليس بمحدث هو تواضعها فى الحياة ويقوم المؤلف برفعها إلى مكانه مرتفعة فى عالمها . . .

وقد كتب ديكنز فى خطاب للسير ادوارد ليتون يقول « لقد سرنى ما ذكرته عن قصتي « معركة الحياة » إني كنت دائماً لا اضطرارى استخدام

فكرة القصة في عدد معين من الصفحات أى لقصة قصيرة كهذه . إننى لم أر قوتها إلا بعد أن مر الوقت ولم يكن هناك مجال للتفكير في موضوع آخر وقد كنت أشعر دائما إننى كنت أستطيع كتابة شيء أعظم باستخدام الموضوع لقصة أكبر .

« الرجل تطارده الاشباح »

في عام ١٨٤٦ حينما كان المؤلف في لوزان بسويسرا جاءته فكرة جديدة لعيد الميلاد الجديد . وقد اضطر وقف العمل بها بعد بدائها لانشغاله في كتابة « دومي وابنه » ولكنه تمكن من نشرها في عام ١٨٤٨ تحت عنوان « إتفاق الشبح » او « الرجل تطارده الاشباح » وقد بيعت نسخ كثيرة من هذه القصة كما انها مثلت على مسرح « الادلفى » وبطل هذه القصة هو رجل يشتغل بالكيمياء كما أنه مدرس في أحد معاهد التأسيس القديمة وعالم انكب على دراسة الفلسفة وكان يكثر التفكير في الماضي ويعتقد أن دراسة الحاضر أكثر نبلا من الانشغال بالماضي . إن الذكرى التي كانت تطارده هي فكرة عمل خاطيء كان له أكبر الأثر في حياته . كان ذلك الفيلسوف يحادث الجن كل ليلة . فلا يلبث الرجل العالم أن ينجح في ابرام معاهدة مع الجن وهى مقدرته على أن يفقد ذكرى الحزن والأخطاء التي حدثت له في الماضي . ومن ثم يصبح ذا قوة يؤثر بها على الأفراد الذين كان يقابلهم . وكان له السلطة على استخدام تلك الموهبة في الأماكن الفقيرة والثرية على السواء . إن عقلية هذا الفيلسوف تصبح مساوية للكائن الوحيد الذى لا يستطيع أن يؤثر عليه وهو صبي بدون مأوى الا الطرقات العامة والذى أصبح بسبب شهواته الحيوانية عبارة عن مجرم صغير إن كل الأعمال

شريرة تعتبر لديه محاسن لأنه لم يتعود عمل شيء أفضل من ذلك، كما أن الحزن يحتل أى مكانة في ذاكرته، ولذلك لا يستطيع الفيلسوف العالم أن يسيطر عليه برغم ما عنده من قوة .

نجح ديكنز نجاحاً عظيماً حين استطاع بقوة قلمه أن يساوى بين ذلك صبي الجاهل الذى عرف كل السرور وذلك الرجل العالم الفيلسوف. ولكن تلك القصة كما في غيرها « عصفور البيت » نجد أشياء غير معقولة، ولكننا نلى كل حال نعجب بهذه القصص لما فيها من مزايا كما أننا نعجب بتلك شخصيات البسيطة والتي لها أهميتها في القصة.

موضوع القصة اجمالاً تأثير الموهبة التي مهبها الجن للعالم وتأثيرها بدورها في الآخرين . إن الشيء الذي كان ينقص هذا العالم الكبير كان يوجد في أبسط وأطف المحبة . فتقدم زوجة حارس المعهد حيث يقوم العالم الكيميائي بالتدريس أحداث التغيير وذلك لامتلاكها فضائل إنكار الذات والتي تكسب أبسط كائن في الوجود جمالا، وتجلب له مزيدا من الحب. إن الأحزان التي صادفتها ، حياتها جعلتها ترغب في التخفيف عن آلام الفير وأحزانهم ، ومنها يصل عالم إلى ضرورة التعاون وأن الحياة أجل مما يعتقد الانسان كما أن للأحزان رائد عديدة . . .

كانت الفكرة في هذه القصة والتي يشرحها ديكنز في خطاب لفورستر أن الخير والشر لا يمكن أن يتجزأ في ذاكرة الإنسان . فإن الإنسان يستطيع أن يحصل على السرور الذي يأتي من تذكر الخير بمفرده . لكي يصل على أحسن مزايا الخير يجب أن يشعر الإنسان بتأثير أسوأ نواحي الشر . اضطر المؤلف عند كتابه هذه القصة أن يذهب الى « بريختون » وهناك

نجاح في خلق شخصية أخرى تشبه سكروج وتلك هي شخصية المستر «ديسالو» كما أنه خلق عائلة «سويدجرز» عوضاً عن عائلة «كراتشت» في قصة «أنشودة العيد» وإن هذه القصة لتبرهن على عظم عقلية ديكنز في ذلك الوقت . لقد أراد أن ينسى ماضيه الذي كان يضم حوادث مؤلمة لم يفهمها لأحد . لقد كان دائماً يشعر بأن هناك أشياء في ماضيه تعيبه ككاتب ومؤلف مشهور .

هذه القصص الخمس جمعت في مجلد واحد تحت عنوان «كتب عيد الميلاد» ولكن ديكنز قد كتب أيضاً نبذات وقصص أخرى موضوعها عيد الميلاد وهي اليوم توجد في مجلد واحد يعرف بعنوان «أقاصيص عيد الميلاد» فمثلاً ذات عام كتب عدداً خاصاً للعيد في مجلة «هو بسبولد وردز» وفيها ساهم المؤلف في «شجرة عيد الميلاد» فتراها بأنوارها الساطعة وهداياها الجميلة وشمعاتها المضيئة، وصورها المتحركة، ومناظر قصة عيد الميلاد ، فترى الملائكة وهم يحدنون الرعاة وينشرونهم بميلاد المسيح ثم نراهم في مـ ففرهم يتبعون النجم إلى بيت لحم حيث يوجد الطفل في مزود البقر ثم يختم المؤلف رسالة العيد بقوله :-

« هذا هو تذكار قانون المحبة والشفقة والرحمة والرأفة - هذا يذكركم بي !! »

« معنى عيد الميلاد للكبار »

وفي عام ١٨٥١ كتب ديكنز قصة « معنى عيد الميلاد للكبار » يقول فيها:

« في العيد يجب ألا نقفل الأبواب في وجه أحد ، فلندع الجميع يستمتعون بما تتمتع به نحن في بيوتنا . يجب أن نذكر الأموات كما نذكر الأحياء الذين

محبهم، وذلك بأن نوجه افكارنا الى الذين فقدناهم من أحبائنا ، فنقول أيها
الوالد الذي حرمتنا منه ، أيها الطفل ، أيها الزوج العزيز ، اننا ان نطردكم
من وسطنا أو ننساكم . إنكم ستحتلون مكانكم العزيز في قلوبنا التي تتهجج
بالعيد وحول مدينتنا، وفي هذا الموسم حين يوجد الأمل الدائم . وفي يوم
عيد الميلاد عيد الرحمة . الرحمة الأبدية فاننا ان نترككم خارج بيوتنا بل
قلوبنا معكم »

لقد كان يؤمن بأن العيد خلق لنشر المحبة للجميع وكان يأمل أن تسعد
البلاذ بأكلها في ظل حب أعظم وأن يغمر السرور والفرح جميع الطبقات
سواء بسواء . . .